إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله -صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وإخوانه إلى يوم الدين- .. وبعد:

فلا يخفى على كل ذي لب أهمية العلم الشرعي في حياة المسلم والمسلمة، فهو المطية الموصلة لغاية عظيمة خلق لأجلها الخلق، ألا وهي تحقيق عبودية الله ﷻ في هذه الحياة الدنيا؛ ولقد تضافرت نصوص الكتاب والسنة على تأكيد فرضية العلم، فقال :﴿فاعلم أنه لا إله إلا الله﴾ الآية.

فبدأ بالعلم قبل القول والعمل، ليبيّن قيمة العلم، وعدم تهوينه والتساهل في طلبه.

وجاء أيضا في السنة المطهرة بيان وجوبه فقال ﷺ : «طلب العلم فريضة على كل مسلم»

رواه ابن ماجه، وصححه الألباني

وهذا الحديث يشمل الرجال والنساء على حد سواء لا فرق بينهما في تحصيل العلم الشرعي، وكما هو معلوم أن الخطاب إذا ورد بلفظ المذكر كان خطابا للنساء إلا ما دخله التخصيص، ويؤكده قول النبي -ﷺ : «إنما النساء شقائق الرجال» [1] فهن شقائق الرجال في جميع الأحكام الشرعية إلا ما خصه الدليل .

فالخطاب المقتضي لتحقيق أركان الإيمان موجه إلى الرجال والنساء، على حد سواء، ولا سبيل إلى تحقيقها من غير علم راسخ، ومعرفة صحيحة.

وكذلك القول بالنسبة لأركان الإسلام الخطاب فيها للرجال والنساء، ويقال مثل ذلك في كل ما يتعلق بالأخلاق والآداب..

فمن هنا تظهر أهمية العلم في حياة المرأة المسلمة؛ وقد تفطنت الصحابيات الجليلات في عهد النبوة لحاجتهن إلى العلم الشرعي فطلبن من النبي ﷺ أن يخصص لهن يوما يجتمعن فيه يعلمهن مما علمه الله، فعن أبي سعيد رضي الله عنه قال: «جاءت امرأة إلى رسول الله فقالت: يا

([1]) رواه أبوداود والترمذي وصححه الألباني.

رسول الله ذهب الرجال بحديثك فاجعل لنا من نفسك يوما نأتيك فيه تعلمنا مما علمك الله، فقال: اجتمعن في يوم كذا وكذا في مكان كذا وكذا، فاجتمعن فأتاهن رسول الله ﷺ فعلمهن مما علمه الله.» [1]

فأقرهن النبي ﷺ على طلب العلم والتعلم، واعتنى بهن، وكان ﷺ حريصا على تبليغهن أحكام الشريعة ليتمكن من عبادة الله ﷻ على أكمل وجه، ولا سبيل لذلك إلا بالعلم.

فإذا كان هذا حال الصحابيات في القرون المفضلة، وقد شعرن -رضي الله عنهن- بحاجتهن إلى العلم، فما بال حال نسائنا في هذا الزمان؛ فهذه حقيقة لا بد أن تدركها النساء والأمهات والآباء والمجتمع بأسره، لأنه أصبح حاجتها إلى العلم أعظم من حاجتها إلى الطعام والشراب؛ وهذا ما ذكره الإمام أحمد رحمه الله قال: «الناس أحوج إلى العلم منهم إلى الطعام والشراب؛ لأن الطعام والشراب يحتاج إليه في اليوم مرة أو مرتين، والعلم يحتاج إليه في كل وقت.»

وإننا نتعجب اليوم من أناس يثبّطون النساء عن طلب العلم، أو يزهدونهن في التحصيل العلمي، بل وينصحونهن بالاكتفاء بالطهارة وبعض مسائل الفقه التي لا بد منها؛ وكأن لسان حالهم يقول أن ميادين العلم الشرعي هي من اختصاص الرجال؛ والحق أن باستطاعة المرأة أن تنافس الرجل في كل علم وفن، وقد تفوق الرجال في سعة العلم والاطلاع؛ وقد سجّل التاريخ بالدليل والبرهان،- كما جاء في كتب السير خلال القرون الذهبية- أنه وجد من النساء من كن عالمات زاهدات، وراويات فاضلات، بل ومحدثات حافظات، تتلمذ على أيديهن فحول العلماء من الرجال؛ وعلى رأسهن أمهات المؤمنين -رضي الله عنهن وأرضاهن- اللواتي كن مرجعا في شتى العلوم.

وكفى بالمرأة عزاً وشرفاً أن يكون العلم لها نعتاً ووصفاً، وكفاها قول النبي ﷺ :« اظفر بذات الدين تربت يداك» وهل تديّن المرأة يكون بغير علم؟!

قال رسول الله ﷺ : «يا أيها الناس إنما العلم بالتعلم والفقه بالتفقه..» [1]

---

(1) رواه البخاري ومسلم

ومن المعلوم أن نشأة الأجيال أول ما تنشأ إنما تكون في أحضان النساء، وبه يتبين أهمية ما يجب على المرأة في إصلاح المجتمع، وحتى تقوم المرأة بهذا الواجب العظيم لا بد لها من مؤهلات ومقومات لتقوم بمهمتها في الإصلاح.. ولن تكون مصلحة ما لم تكن صالحة، ولن تصل إلى الصلاح إلا بالعلم الشرعي ؛ إذاً بقدر ضخامة المسؤولية الملقاة على عاتقها تُقدر حاجتها إلى العلم الكافي الوافي.

-**تصحيح النية**: صح في الحديث: «من تعلم علما يبتغى به وجه الله عز وجل لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضا من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة » [2]

-**بناء الفقه على الكتاب والسنة**: فمن بنى الكلام في العلم على الكتاب والسنة والآثار المأثورة عن السابقين فقد أصاب طريق النبوة ، من رام العلم الشرعي والهدى بعيدا عن الكتاب السنة فقد رام المستحيل، ومن أخذ بغيرهما استغناء عنهما فقد ضل سواء السبيل.

-**تقوى الله عز وجل وإصلاح الظاهر والباطن** :قال الله تعالى :(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ)[الأنفال29]،وقال تعالى: وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ }البقرة282 وقال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ } [الحديد : 28]

وقال تعالى :﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآَتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ محمد 17

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله – كمافي مقدمة رسالته في أعمال القلوب–:« فمن عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم.»

فعليك أختي المسلمة بالتحلي في ظاهرك وباطنك بتقوى الله عز وجل حتى ينور الله قلبك بنور العلم قال الإمام الشافعي رحمه الله :« من أحب أن يفتح الله قلبه أو ينوره فعليه بترك

---

(1) أخرجه المنذي في الترغيب، وصححه الألباني.

(2) أخرجه أبو داود وغيره وصححه الألباني.

الكلام فيما لا يعنيه وترك الذنوب واجتناب المعاصي، ويكون فيما بينه وبين الله خبية من عمل؛ فإنه إذا فعل ذلك فتح الله عليه من العلم ما يشغله عن غيره.»

ومن مظاهر التقوى أختي المسلمة:

التزام الزي الشرعي الذي فرضه الله علينا وعدم الخروج متطيبات.

~اجتناب مجالس السوء والغيبة والنميمة وإمساك اللسان وحفظه من الآفات.

~غض البصر عند رؤية الأجانب وترك الإكثار من الخروج إلا لحاجة ملحة

~الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أينما كنت وأينما حللت .

~الحذر من الحسد والعجب والكبر وكل الصفات الذميمة والتحلي بالأخلاق الفاضلة الكريمة .

-**تفريغ القلب للعلم والهمة العالية** :لا شيء يدرك بدون السعي في طلبه، والإرادة التامة والهمة العالية هي التي تحملك على تحصيل العلم وبذل الجهد واغتنام الأوقات لإدراكه، والتعوذ من العجز والكسل كما كان النبي ﷺ يتعوذ منهما، لأنهما قاطع عن كل خير، فعلى من شرعت في تحصيل العلم النافع أن توطن نفسها على تحصيله من كل وجه، ولا تستبطئ النتيجة النافعة ، وإن أعظم ما يعين على التفرغ للطلب هو عظم الرغبة في الآخرة وما عند الله، وشدة التعلق بالمطلب الأعلى، فإن في العلم شغلا عن متاع الحياة وزخرفها.

-**الصبر والاستمرار في التعلم** والبعد عن الإحساس بالملل والتحسر؛ فإن ذلك يؤدى إلى الترك ، فعلى الأخت الراغبة في تحصيل العلم أن تنظم أوقاتها في بيتها فتجعل لكل ذي حق حقه ،وللعلم وقته وحقه، فعن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ يَحْيَى بْنِ أَبِي كَثِيرٍ قَالَ سَمِعْتُ أَبِي يَقُولُ:« لَا يُسْتَطَاعُ الْعِلْمُ بِرَاحَةِ الْجِسْمِ»[1]

وقال الشافعي رحمه الله :« حق على طلبة العلم بلوغ جهدهم في الاستكثار من علمه و الصبر على كل عارض في الله في طلبه»

(1) أخرجه مسلم

-**الاعتناء بحفظ كتاب الله** قبل كل علم كفائي:وهذا من أهم ما نتواصى به بيننا وهو حفظ القرآن والحرص على جمعه في صدورنا فذلك أول العلم، قال الإمام الخطيب البغدادي رحمه الله : « ينبغي للطالب أن يبدأ بحفظ كتاب الله عز وجل إذ كان أجل العلوم وأولاها بالسبق والتقديم.» وقال الإمام النووي رحمه الله ، وأول ما يبتدأ به حفظ القرآن العزيز فهو أهم العلوم وكان السلف لا يعلمون الحديث والفقه إلا لمن حفظ القرآن، وإذا حفظ فليحذر من الاشتغال عنه بالحديث والفقه وغيرهما اشتغالا يؤدي إلى نسيان شيء منه.

-التروي في طلب العلم: قال الله تعالى:﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾ وقال النبي ﷺ لعبد الله بن عمرو رضي الله عنهما :« اقرأ القرآن في كل شهر قال: قلت: إني أجد قوة، قال : فاقرأه في عشرين ليلة قال قلت: إني أجد قوة قال فاقرأه في سبع ولا تزد على ذلك.» [1] وقال الزهري رحمه الله ليونس بن يزيد :« يا يونس لا تكابد العلم فإن العلم أودية فأيها أخذت فيه قطع بك أن تبلغه ولكن خذه مع الأيام والليالي ولا تأخذ العلم جملة فإن من رام أخذه جملة ذهب عنه جملة ولكن الشيء بعد الشيء مع الليالي والأيام» وعلامة ذلك التدرج في العلم لاسيما لمن في المراحل الدنيا، فيبدأ بصغار المسائل قبل كبارها،، كما يبدأ بالمختصرات التي تصور المسائل، وإن قللت من ذكر الدلائل..

-**العمل بالعلم** :إن ثمرة العلم العمل به و الانتفاع منه؛ إذ لا قيمة لعلم لا ينفع حامله، ولقد استعاذ النبي ﷺ :من علم لا ينفع فقال: «اللهم إني أعوذ بك من علم لاينفع » [2] قال الإمام سفيان بن عيينة المكي الهلالي رحمه الله :« ليس شيء أنفع من علم ينفع، وليس شيء أضر من علم لا ينفع.» وقد صح أن العبد يسأل ويوم القيامة عن علمه ما عمل فيه. وللخطيب البغدادي كتاب ماتع في الموضوع أسماه (اقتضاء العلم العمل) وذكا للحافظ أبي القاسم ابن عساكر كتاب (ذم من لا يعمل بعلمه) ومن الحكم الإلهية الباهرة أن العمل بالعلم يقود السامعين إلى الاقتداء، كما أن مخالفة العلم يصد الآخرين عن الأخذ به:

---

(1) أخرجه مسلم.

(2) أخرجه مسلم

إذا أنت لم ينفعك علمك لم تجد* لعلمك مخلوقا من الناس يقبله.

وإن زانك العلم الذي قد حملته * وجدت له ما يجتبيه و يحمله.

والذي يخالف عمله علمه، معرض لأشد أنواع الوعيد، موصوف بأقبح أنواع الذم، فعن أبي زيد أسامة بن زيد بن حارثة رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أقتاب بطنه فيدور بها كما يدور الحمار في الرحى فيجتمع إليه أهل النار فيقولون يا فلان ما لك ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟ فيقول: بلى كنت آمر بالمعروف ولا آتيه وأنهى عن المنكر وآتيه.» (1)

وذكر ﷺ في أول ثلاثة الذين تسعر بهم النار يوم القيامة رجلا «تعلم العلم وعلمه ، وقرأ القرآن ، فأتي به فعرفة نعمة ، فعرفها ، قال : فما علمت فيها ؟ قال : تعلمت العلم وعلمته ، وقرأت فيك القرآن ، قال : كذبت ولكنك تعلمت العلم ليقال : عالم، وقرأت القرآن ليقال : هو قارئ ، فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار.» (2)

وهذا معنى قول الناظم: (وعالم بعلمه لا يعمن * معذب من قبل عباد الوثن)

ومما ذم الله به العالم الذي لم يعمل بعلمه، أن شبهه أخس الحيوانات :الكلب والحمار، فقال تعالى: ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ* وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَـكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ الأعراف175-176

وقال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ الجمعة5

(1) متفق عليه

(2) رواه مسلم

الأخذ عن العلماء: قال ابن سيرين ومالك و خلائق من السلف: «هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذوا دينكم» فلا يأخذ العلم إلا ممن كملت أهليته،وظهرت ديانته، وتحققت معرفته، واشتهرت صيانته و سيادته، و قالوا لا تأخذ العلم ممن كان أخذه له من بطون الكتب غبر قراءة على شيوخ أو شيخ حاذق ،فمن لم يأخذه إلا من الكتب يقع في التصحيف و يكثر منه الغلط.

ومن اطلع على كتاب "تصحيفات المحدثين" للعسكري وكتاب (أخبار الحمقى والمغفلين) لاين الجوزي ير العجب العجاب، في شأن أولئك الذين تلقوا علمهم من الصحف دون مراجعة المشايخ..فقد قرأ أحدهم حديث النبي ﷺ : «زرغبا تزدد حبا» ففسره بما يضحك الصبيان،،

وعن يحيى بن بكير قال: جاء رجل إلى البشير بن سعد فقال: كيف حدثك نافع عن النبي ﷺ : في الذي نشرتَ في أبيه القصة؟ فقال الليث: ويحك إنما هو في الذي يشرب في آنية الفضة.

قال الدارقطني: وحدثني محمد بن يحيى الصولي قال: حدثنا أبو العيناء قال: حضرت مجلس بعض المحدثين المغفلين فأسند حديثاً عن النبي ﷺ عن جبرائيل عن الله عن رجل فقلت: من هذا الذي يصلح أن يكون شيخ الله؟ فإذا هو عز وجل قد صحفه .

وسأل حماد بن زيد غلامٌ فقال: يا أبا إسماعيل حدثك عمر أن النبي ﷺ نهى عن الخبز قال: فتبسم حماد وقال: يا بني إذا نهى عن الخبز فمن أي شيء يعيش الناس، وإنما هو نهى عن الخمر.

وصحف أحدهم معنى الحديث (...حتى لو دخلتم جحر ضب لدخلتموه) أخرجه البخاري. فظن أن البخاري –وفي رواية الترمذي- إنما أخرج الضب من الجحر.

و لم يتوقف التصحيف عند الحديث النبوي، بل صحف المصحفون حتى الكتاب العزيز.

وقرأ أحدهم –كما في كتاب الحمقى- :(فضرب بينهم بسنور له ناب) فقيل له إنما هو (بسور له باب) فقال: أنا لا أقرأ قراءة حمزة قراءة حمزة عندنا بدعة.

عن أبي الحسين أحمد بن يحيى قال: مررت بشيخ في حجره مصحف وهو يقر:(ولله ميزاب السموات والأرض) فقلت: يا شيخ ما معنى (ولله ميزاب السموات والأرض) قال:

هذا المطر الذي نراه فقلت: ما يكون التصحيف إلا إذا كان بتفسير يا هذا إنما هو " ميراث السموات والأرض " فقال: اللهم اغفر لي أنا منذ أربعين سنة أقرؤها وهي في مصحفي هكذا.

وعن أبي عبيدة قال: كنا نجلس إلى أبي عمرو بن العلاء فنخوض في فنون من العلم ورجل يجلس إلينا لا يتكلم حتى نقوم فقلنا: إما أن يكون مجنوناً أو أعلم الناس! فقال يونس: أو خائف سأظهر لكم أمره..فقال له: كيف علمك بكتاب الله تعالى؟ قال: عالم به قال: ففي أي سورة هذه الآية: (الحمد الله لا شريك له * من لم يقلها فنفسه ظلما)؟ فأطرق ساعة ثم قال: في حم .

قال الدارقطني: حدثنا النقاش قال: كنت بطبرية الشام أكتب على شيخ فيها عنده جزء فيه عن أبي عمرو الدوري وكان فيه أن يحيى بن معمر قرأ: (إن لك في النهار شيخاً طويلاً..)

عن ابن الرومي قال: خرج رجل إلى قرية فأضافه خطيبها فأقام عنده أياماً فقال له الخطيب: أنا منذ مدة أصلي بهؤلاء القوم وقد أشكل علي في القرآن بعض مواضع قال: سلني عنها قال: منها في " الحمد لله " " إياك نعبد وإياك " (تسعين) أو (سبعين) أشكلت علي هذه فأنا أقولها تسعين آخذ بالاحتياط .

يظن الغمر أن الكتب تهدي * أخا فهم لإدراك العلوم
وما يدري الجهول بأن فيها * غوامض حيرت عقل الفهيم
إذا رمت العلوم بغير شيخ * ضللت عن الصراط المستقيم
وتلتبس الأمور عليك حتى * تصير أضل من توما الحكيم

وكان توما رجلا ادعى الحكمة والطب، وزعم أنه يشفي من الأدواء، وذات يوم قرأ في كتب الطب النبوي حديث: «الحبة السوداء دواء لكل داء»، لكن الكلمة تصحفت عليه في الكتاب فقرأها الحية بالياء المثناة التحتانية....وصار ينصح الناس بأكل الحيات السوداء، فصاروا يعالجون بها ويموتون.

ولنختم هذه الورقة بذكر جملة من آداب المتعلم والمعلم مع الشيخ:

1- أن يستخير الله عز و جل فيمن يأخذ عنه العلم من المشايخ.

2- أن يكون مع شيخه كالمريض مع الطبيب الماهر في عدم مخالفة وصاياه.

3- أن يعرف له حقه و لا ينسى له فضله، وإن بلغ من العلم ما بلغ.

4- أن يصبر على جفوة تصدر من شيخه أو سوء خلق.

5- حسن الجلسة في المجلس.

6- حسن السؤال و أن يقدم الدعاء بين يدي سؤاله كقوله غفر الله لك أو عفى الله عنك.

قال الضحاك "ما استخرجت هذا العلم من العلماء إلا بالرفق بهم".

7- أن يجل المعلم من دون غلو أو إسراف.

8- لا ينبغي للطالب قطع المعلم أثناء الشرح فإن هذا يفوت عليه الخير الكثير.

9- إذا سمع المعلم يذكر شيئا هو يعرفه فإنه يصغي إصغاء مستفيد كأنه لم يسمعه قط.

10 أن لا يسبق المعلم إلى شرح مسالة أو جواب سؤال من غيره.

نواكشوط 2012/5/12هـ معهد النساء العلمي.